الكتاب الرابع

تقدم العلم ١٧٥١ — ٧٩

الفصل الخامس عشر

الأدباء

١ — البيئة الفكرية :

تعطل نمو المعرفة نتيجة للجمود ، والخرافة ، والاضطهاد ، والرقابة ، وهيمنة الكنيسة على التعليم . حقيقة أن هذه المعوقات ضعفت عن ذى قبل ، ولكنها ظلت أقوى كثيراً منها فى حضارة صناعية يضطر فيها الناس ، بسبب تنافس الأفراد ، والجماعات ، والأمم ، إلى البحث عن أفكار وأساليب جديدة ، عن وسائط جديدة لغايات قديمة . وكان أكثر الناس فى القرن الثامن عشر يتحركون فى بيئة بطيئة التغير ، تكفى الاستجابات والأفكار التقليدية عادة لسد حاجات الحياة فيها . فإذا لم تسمح المواقف والأحداث الجديدة بالتفسيرات الطبيعية دون عناء ، عزتها عقول العوام لأسباب خارقة ، ثم أخلدت إلى الراحة .

وبقيت مئات الخرفات جنباً إلى جنب مع الاستنارة المطردة . مثال ذلك أن نساء الطبقة العليا كن يرتعدن إذا كانت طوالعهن نحوسا ، أو يؤمن بأن فى الإمكان إحياء طفل غريق إذا أضاءت امرأة فقيرة شمعة وعومتها فى فنجان لتشعل النار فى كوبرى على السين . وقد وعدت أميرة كونتى الأبيه لورو بحاشية فخمة إذا عثر لها على حجر الفلاسفة . واحتفظت جولى دلبسيناس بإيمانها بالأيام السعيدة والمشئومة رغم أنها عاشرت العالم الشاك دالامبير عدة سنين .

وكان قارئوا البخت يعيشون على صيت شفافيتهم ؛ من ذلك أن مدام دبومبادور ، والابيه دبيرنيس ، والدوق دشوازيل كانوا يستشيرون خفية مدام بونتان ، التى تقرأ لهم البخت فى تفل القهوة . [١] ويقول مونتسكيو أن باريس كانت تعج بالسحرة وغيرهم من الدجالين الذين يكفلون للناس التوفيق فى دنياهم أو التمتع بشباب دائم . وقد أقنع الكونت سان جرمان لويس الخامس عشر أن فى الإمكان إصلاح ماليات فرنسا التى فسدت بوسائل خفية لصنع الماس والذهب [٢] وكان الدوق دريشليو يتسلى بالسحر والشعوذة — مستعيناً بالشيطان . أما أمير انهالت دساو العجوز ، الذى كسب معارك كثيرة لبروسيا ، وكفر بالله ، فكان إذا التقى بثلاث عجائز فى طريقه إلى الصيد قفل إلى بيته ، لأن « اليوم نحس » . [٣] وكان آلاف الناس يحملون التمائم أو الطلاسم اتقاء الشرور . واستعملت مئات الوصفات السحرية علاجات طبية شعبية . واعتقد الناس أن فى قدرة المخلفات الدينية أن تشفى كل العلل تقريباً ، وكانوا يجدون مخلفات المسيح أو ذخائر القديسين فى أى مكان — فقطعة من ثوبه فى تريبيه ، وعباءته فى تورين ولاون ، ومسمار من مسامير الصليب الحقيقى فى دير سان — دنيس . وقد تدعمت قضية المطالبين الاستيوارتيين بالعرش فى انجلتره بفضل فكرة آمن بها أكثر الناس ، وهى أن فى استطاعتهم شفاء الداء الخنازيرى بلمسة منهم — وهى قوة حرم منها الملوك الهانوفريون لأنهم « غاصبون » لم يتباركو بحق الملوك الإلهى . وكان أكثر الفلاحين على يقين من أنهم سمعوا العفاريت أو الجنيات فى الغابات . ومع أن الاعتقاد بوجود العفاريت كان فى اضمحلال ، فإن دوم أوجستن كالميه ، البندكتى المثقف ، كتب تاريخاً لمصاصى الدماء Vampires — وهى جثث تترك قبورها فى الليل لتمتص دم الأحياء ؛ وقد نشر هذا الكتاب بموافقة السوربون . [٤]

واختفت فى هذا القرن شر الخرافات قاطبة ، وهى الإيمان بالسحر ، اللهم إلا بعض بقاياه المحلية . ففى ١٧٣٦ اتخذ « أحبار الكنائس المشيخية المتحدة » الاسكتلندية قراراً يؤكد من جديد إيمانهم بالسحر ، [٥] وفى ١٧٦٥ (وهو تاريخ متأخر) كتب أشهر الفقهاء الإنجليز ، السر وليم

بلاكستون فى « تعليقاته » يقول : « إن إنكار إمكان السحر والعرفة ، لا بل وجودهما الفعلى ، إنما هو تكذيب صريح لكلمة الله ، فالشيء وذاته حقيقة شهدتها كل أمة فى العالم بدورها » . ولكن القانون الإنجليزى الذى جعل من السحر جناية كبرى ألغى فى ١٧٣٦ رغم بلاكستون والكتاب المقدس . ولم يرد ذكر لأى حكم بالاعدام عقاباً على تهمة السحر لا فى فرنسا بعد ١٧١٨ ، ولا فى اسكتلندة بعد ١٧٢٢ ؛ وحكم الإعدام الذى نفذ فى سويسرة عام ١٧٨٢ هو آخر ما ورد ذكره من أحكام إعدام فى القارة الأوربية .[٦] وكان لازدياد الثروة ، وتكاثر المدن ، وانتشار التعليم ، وتجارب العلماء ، ونداءات الأدباء والفلاسفة — كان لهذا كله أثره فى الحد شيئاً فشيئاً من دور الشياطين والعفاريت فى حياة الناس وتفكيرهم ، ورفض القضاة الاستماع إلى تهم العرافة ، متحدين فى ذلك التعصب الجماهيرى . وبدأت أوربا تنسى أنها ضحت بمائة ألف رجل ، وامرأة ، وفتاة ، على مذبح خرافة واحدة فقط من خرافاتها الكثيرة .[٧]

وظل اضطهاد الكنيسة والدولة ، والكاتوليك والبروتستنت ، للمنشقين والخوارج يرهب الناس بأهواله ليحجب عن عقولهم أى أفكار قد تمس المعتقدات الراسخة أو تزعج السلطات المقررة . وقد زعمت الكنيسة الكاثوليكية أن مؤسسها هو ابن الله ، فهى إذن مستودع الحق الإلهى ، والمفسر الشرعى الوحيد له ، ولها إذن حق قمع الهرطقة . وقد انتهت إلى أنه لا خلاص لإنسان من الهلاك الأبدى خارج الكنيسة . ألم يقل المسيح « من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يدن » ؟[٨] ومن ثم فإن مجمع اللاتران المسكونى الرابع ، المنعقد فى ١٢١٥ ، جعل النص الآتى جزءاً من العقيدة النهائية التى يلزم بها كل كاثوليكى « هناك كنيسة جامعة واحدة للمؤمنين ، لا خلاص خارجها لأحد على الإطلاق »[*]

(*) أكد البابا بيوس التاسع هذه العقيدة من جديد فى منشوره الذى أصدره فى ١٠ أغسطس ١٨٦٣ ، « أن العقيدة الكاثوليكية معروفة جيدا ، وهى أنه لا يستطيع أحد أن يخلص بعيدا عن الكنيسة الكاثوليكية (الموسوعة الكاثوليكية ، ٣ – ٧٥٣ ب). =

وقد قبل لويس الخامس عشر هذه العقيدة باعتبارها منطقياً مستقاة من نصوص الكتاب المقدس ، نافعة فى تشكيل عقل قومى موحد . وفى ١٧٣٢ كانت ممارسة العبادة البروتستنتية علانية فى فرنسا محرمة ، وإلا كان التعذيب ، أو التشغيل فى مراكب الأسرى ، أو الموت ، عقاباً للمخالفين . [٩] على أن الأهالى الكاثوليك كانوا أكثر تسامحاً من قادتهم ، فأنكروا هذه العقوبات الوحشية ، واشتد التراخى فى تطبيق المرسوم حتى جرؤ هيجونوت فرنسا فى ١٧٤٤ على عقد مجمع قومى لهم على أن السوربون ، كلية اللاهوت فى جامعة باريس ، أكدت من جديد فى ١٧٦٧ الدعوى القديمة ، « أن الملك تلقى السيف الزمنى ليقمع به مذاهب كالمادية ، والإلحاد ، والربوبية ، تمزق روابط المجتمع وتحرض على الجريمة ؛ وليسحق أيضاً كل تعليم يهدد بزعزعة أسس الإيمان الكاثوليكى . » [١٠] وقد طبقت هذه السياسة بصرامة فى أسبانيا والبرتغال ؛ وفى إيطاليا طبقت تطبيقاً أكثر ليناً ، وفى روسيا اشترطت الكنيسة الأرثوذكسية إجماعاً مماثلا .

ووافق الكثير من الدول البروتستنتية الكاثوليك على ضرورة الاضطهاد . ففى الدنمرك والسويد طالبت القوانين بالتزام المذهب اللوثرى ، ولكن غير اللوثريين من البروتستنت ، بل الكاثوليك أيضاً ، كانوا من الناحية العلمية فى مأمن من الاضطهاد ، وإن ظلوا محرومين من حق شغل مناصب الدولة . وفى سويسره كانت كل مقاطعة حرة فى اختيار مذهبها وفرضه على أهلها . وفى ألمانيا كانت القاعدة التى تقضى بأن يتبع الناس دين أميرهم تغفل باطراد .

= ومن الانصاف أن نضيف أن اللاهوت الكاثوليكى الحديث يخفف من غلواء هذه العقيدة ، أن يقرر أن العقيدة ... التى تلخصها عبارة « لا خلاص خارج الكنيسة الكاثوليكية . . . لاتعنى أنه لاخلاص الا للذين فى شركة منظورة مع الكنيسة . فقد علمت الكنيسة الكاثوليكية دائما أنه لا شىء يلزم للتبرير غير فعل المحبة الكاملة والتوبة . وكل من تصدر عنه هذه الأفعال بدافع النعمة الحقيقية ، ينال على الفور عطية النعمة التى تقدسه ، ويحسب فى عداد أبناء الله . فإذا مات فى هذه الأوضاع والنوازع فسوف يدخل الجنة بالتأكيد » . . . .

(النص السابق ٧٥٢) ب .

وفى الأقاليم المتحدة رفض رجال الدين البروتستنت التسامح باعتباره محرضاً على اللامبالاة الدينية ، ولكن العلمانيين رفضوا الاقتداء برجال الدين فى هذا الأمر ، فأصبحت هولندة بفضل تحريرها النسبي من الاضطهاد ملاذاً للأفكار والمطبوعات غير التقليدية . وفى انجلتره سمحت القوانين بالانشقاق الدينى ، ولكنها تعقبت المنشقين بالقيود الاجتماعية والسياسية . وقد صرح صموئيل جونسن فى ١٧٦٣ بأن « التعليم الباطل ينبغى قمعه بمجرد ظهوره ؛ وينبغى أن تتكاتف السلطة المدنية مع الكنيسة فى عقاب من يجرؤن على مهاجمة الدين المقرر . »(١١) وأحرقت الحكومة الانجليزية بين الحين والحين الكتب ، أو وضعت فى المشهرة مؤلفيها الذين تشككوا فى أسس الإيمان المسيحى ؛ مثال ذلك أن وولستن غرم وحبس فى ١٧٣٠ ، وفى ١٧٦٢ حكم على بيتر آرنت بوضعه فى المشهرة ، ثم بالسجن سنة مع الأشغال الشاقة ، بسبب تهجمه على المسيحية . وكانت القوانين التى شرعت ضد الكاثوليك تطبق فى انجلتره تطبيقاً غير دقيق ، ولكنها نفذت بصرامة فى ارلنده ، إلى أن رفض اللورد تشسترفيلد تطبيقها حين تولى حكم الإقليم فى ١٧٤٥ ؛ وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ألغى بعض اللوائح الصارمة . ويمكن القول بصفة عامة أن نظرية الاضطهاد كان يؤمن بها رجال الدين الكاثوليك والبروتستنت حتى سنة ١٧٨٩ ، إلا حيث كان الكاثوليك أو البروتستنت أقلية ، ولكن ممارسة الاضطهاد تضاءلت بظهور رأى عام جديد مع تطور الارتياب الدينى . وانتقلت غريزة الاضطهاد من الدين إلى السياسة بحلول الدولة محل الكنيسة حارساً على الإجماع والنظام وهدفاً للانشقاق المبتدع .

أما الرقابة على الكلام والمطبوعات فكانت فى الدول البروتستنتية بصفة عامة منها فى الدول الكاثوليكية ، وكانت أهون ما تكون فى هولندة وانجلتره . وكانت صارمة فى أكثر المقاطعات السويسرية . وقد أحرق آباء المدينة فى جنيف بعض الكتب الخارجة على السنة ، ولكن ندر أن اتخذوا إجراء ضد مؤلفيها . وفى ألمانيا تعطلت الرقابة لتعدد الولايات التى كان لكل منها عقيدته الرسمية الخاصة ؛ وكان فى استطاعة الكاتب أن ينتقل عبر الحدود

من بيئة معادية إلى بيئة صديقة أو محايدة . وفى بروسيا ألغى فردريك الأكبر الرقابة عملياً ، ولكن خلفه أعادها فى ١٧٨٦ . أما الدنمرك فإنها احتفظت بالرقابة على الكتب حتى عام ١٧٤٩ باستثناء فاصل قصير فى عهد شتروينزى؛ وأما السويد فقد حظرت نشر المواد التى انتقدت اللوثرية أو الحكومة ، وفى ١٧٦٤ أصدرت جامعة أوبسالا قائمة بالكتب المحرمة ؛ ولكن فى ١٧٦٦ قررت السويد الحرية الكاملة للمطبوعات .

كانت الرقابة فى فرنسا قد اتسعت من سابقة إلى سابقة منذ عهد فرنسوا الأول ، ثم جددت بمرسوم صدر فى ١٧٢٣ ينص على « ألا يطبع ناشرون أو غيرهم ، أو يعيدوا طبع ، أى كتب فى أى مكان فى المملكة ، دون الحصول سلفاً على إذن بخطابات مختومة بالخاتم الكبير » . وكان هناك ستة وسبعون رقيباً رسمياً فى ١٧٤١ ، بطلب إلى الرقيب منهم قبل أن يمنح الكتاب « إذن الملك وامتيازه » أن يشهد بأن الكتاب لا يحوى شيئاً ضد الدين ، أو النظام العام ، أو الخلق القويم . ويجوز لبرلمان باريس أو السوربون أن يشجبا الكتاب حتى بعد نشره بإذن الطبع الملكى . وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر لم تطبق الرقابة الملكية إلا تطبيقاً هيناً ، فظهرت آلاف الكتب دون إذن ودون أن يمسها سوء ، وفى كثير من الحالات لا سيما حين تولى مالزيرب رئاسة الرقابة (١٧٥٠ — ٦٣) كان المؤلف يحصل على « إذن ضمنى » — وهو تعهد غير رسمى بأن الكتاب المراد نشره يصرح بطبعه دون خوف من محاكمة . فإذا صدر كتاب لم تصرح الحكومة بنشره جاز أن يحرقه جلاد الدولة بينما يظل المؤلف حراً طليقاً ، فإذا زج به فى الباستيل لم يسجن غير سجن قصير كريم . (١٢)

على أن هذه الحقبة من التسامح النسبى انتهت بمحاولة داميان اغتيال لويس الخامس عشر (٥ يناير ١٧٥٧) . ففى أبريل قضى مرسوم وحشى بالموت على « جميع من يدانون بكتابة أو طبع أى مؤلفات قصد بها التهجم على الدين أو العدوان على السلطة الملكية أو تكدير نظام المملكة وهدوئها . » وفى ١٧٦٤ حرم مرسوم آخر نشر الكتب التى تتناول مالية الدولة . وأخضعت الكتب ، والنشرات ، وحتى مقدمات المسرحيات ، لأكثر ضروب الفحص

والإشراف تفصيلا . وفرضت أحكام تتفاوت بين الوضع فى المشهرة والجلد ، وبين التشغيل تسع سنين فى سفن الأسرى والعبيد عقاباً على شراء أو بيع نسخ من قصيدة فولتير « لابوسيل » أو « قاموسه الفلسفى » . وفى ١٧٦٢ كتب دالامبير إلى فولتير يقول : « إنك لا تتصور مبلغ الهياج الذى بلغته محكمة التفتيش (فى فرنسا) . فإن مفتشى الفكر ... يحذفون من جميع الكتب ألفاظاً مثل « الخرافة » و « التسامح » و « الاضطهاد » . (١٣) واشتدت الكراهية فى طرفى الصراع بين الدين والفلسفة ؛ وما بدأ حملة على الخرافة تصاعد حتى أصبح حرباً على المسيحية . وقد نشبت الثورة فى فرنسا ، لا فى انجلتره القرن الثامن عشر ، من بعض الوجوه لأن رقابة الدولة أو الكنيسة ، التى كانت معتدلة فى انجلتره ، اشتدت فى فرنسا إلى حد استحال معه على العقل الحبيس أن ينطلق إلا بتحطيم أغلاله تحطيما عنيفاً .

واحتج « الفلاسفة » (وهو اصطلاح يراد به الفلاسفة الفرنسيون الذين شاركوا فى الهجوم على المسيحية) على الرقابة لأنها تحكم على الفكر الفرنسى بالعقم . ولكنهم هم أنفسهم كانوا أحياناً يطلبون إلى الرقيب أن يكبح جماح خصومهم . مثال ذلك أن دالامبير رجا مالزيرب أن يصادر مجلة فريرون المسماة « عدو الفيلسوف » ، و « العام الأدبى » . ولكن مالزيرب أبى رغم ميله للفلاسفة . (١٤) وطلب فولتير إلى الملكة أن تحظر تمثيل تقليد ساخر لمسرحيته « سميراميس » ، فلم تشأ حظرها ، ولكن بومبادور حظرتها . (١٥)

واحتال الفلاسفة أثناء ذلك بشتى الطرق لتفادى الرقابة فأرسلوا مخطوطاتهم إلى الناشرين الأجانب ، عادة إلى أمستردام ، أو لاهاى ، أو جنيف ؛ ومن هناك كانت كتبهم بالفرنسية تستورد بالجملة إلى فرنسا ، فتصل كل يوم تقريباً بالمراكب إلى بوردو أو غيرها من الموانى على الساحل أو الحدود الفرنسية . وكان الباعة يطوفون بها من شارع إلى شارع ، ومن بلد إلى بلد ، مستخفية وراء عناوين بريئة . وسمح بعض النبلاء الذين لم يكونوا شديدى الإخلاص للحكومة الممركزة ببيع هذه الكتب فى أرضهم . (١٦) ونجت رسائل فولتير ، التى وحدت الحملة الفلسفية من كثير من الرقابة لأن صديقه داميلافيل شغل حيناً منصباً فى إدارة المالية ، فاستطاع أن يصدق بختم الرقيب العام على رسائل فولتير وشركائه وطرودهم . (١٧) وقرأ

الكثير من موظفى الحكومة ، وبعض رجال الدين ، بلذة تلك الكتب التى شجبتها الحكومة أو الأكليروس . وندر أن وضع مؤلفو الكتب الفرنسيون المنشورة خارج فرنسا أسماءهم على الغلاف ، فإذا اتهموا بتأليفها كذبوا بضمير جرىء ، وكان هذا جزءاً من اللعبة باركته قوانين الحرب . ولم يكتف فولتير بانكار تأليف العديد من كتبه ، به أنه أحياناً نسب تأليفها إلى الموتى . وضلل الرقيب بنشره مقالات ينقد فيها كتبه أويندد بها . واشتملت اللعبة على حيل فى الصياغة أو التعبير أعانت على تشكيل ما فى النثر الفرنسى من رقة ورهافة فى تورياته ، وحواراته ، ورمزياته ، وقصصه ، ومفارقاته ، ومبالغاته الشفافة ، وفى ما يتسم به فى مجموعه من ذكاء وظرف بلغا مبلغاً لم يضارعه فيها أدب قط . وقد عرف الأبيه جاليانى البلاغة بأنها فن قول الشىء دون أن يزج بقائله فى الباستيل .

وثمت عقبة أخرى فى طريق التفكير الحر لم تفقها غير عقبة الرقابة ، وهى هيمنة رجال الدين على التعليم . فقد كان القساوسة المحليون فى فرنسا يعلمون أو يشرفون على التعليم فى مدارس الابرشيات . وكان التعليم الثانوى فى قبضة اليسوعيين معلمين للغات والآداب الكلاسيكية ، ولكنهم كانوا أقل عوناً فى ميدان العلوم . وقد شحذ التعليم اليسوعى أذهان عدد كبير من « الفلاسفة » . وكانت جامعة باريس تخضع لقساوسة أشد محافظة من اليسوعيين أما جامعة أورليان المشهورة بالقانون ، وجامعة مونبلييه المشهورة بالطب ، فكانتا علمانيتين نسبياً . ومما له دلالة أنه لا مونتسكيو ، ولا فولتير ، ولا ديدورو ، ولا مويبرتوى ، ولاهلفيتيوس ، ولا بوفون ، درسوا فى جامعة فقد ازدهر العقل الفرنسى المناضل للتحرر من سلطان اللاهوتيين ، لا فى الجامعات ، بل فى الأكاديميات والصالونات .

وكانت الأكاديميات العلمية قد ظهرت فى هذا القرن فى برلين (١٧٠١) وأوبسالا (١٧١٠) وسانت بطرسبورج (١٧٢٤) وكوبنهاجن (١٧٤٣) . وفى ١٧٣٩ ألف لينيوس وخمسة أدباء سويديين آخرين « الكوليجيوم كوريوزم » ، وفى ١٧٤١ تأسست من هذه الهيئة أكاديمية « كونجليجا زفنسكا فيتنسكابس » ، التى أصبحت الأكاديمية الملكية السويدية . وكان فى فرنسا

أكاديميات اقليمية فى أورليان ، وبوردو ، وتولوز ، وأوجزير ، ومتز ، وبيزانسون ، وديجون ، ولبون ، وكان ، وروان ، ومونتوبان ، وأنجير ، ونانسى ، وأكس — أن — بروفانس . وتجنبت الأكاديميات الهرطقة ، ولكنها شجعت العلم والتجربة ، وتسامحت فى النقاش وشجعته ، ومسابقات الجوائز التى قدمتها أكاديمية ديجون فى ١٧٤٩ و١٧٥٤ هى التى أطلقت روسو على الدرب إلى الثورة الفرنسية . وفى باريس أيقظ انتخاب دوكلو (١٧٤٦) ودالامبير (١٧٥٤) أكاديمية الخالدين المحتضرين الفرنسية من غفواتها الدجماطيقية ؛ وكان ارتقاء دوكلو إلى منصب استراتيجى فى الأكاديمية ، هو منصب « السكرتير الدائم »(١٧٥٥)إيذاناً بسيطرة الفلاسفة على الأكاديمية .

وأضافت المجلات العلمية مزيداً من الحفز للحركة الفكرية . وكان من خيرة هذه المجلات « مذكرات للانتفاع بها فى تاريخ العلوم والفنون الجميلة » التى رأس تحريرها اليسوعيون من ١٧٠١ إلى ١٧٦٢ ، وتعرف بمجلة « تريفو » نسبة إلى دار النشر فى تريفو ، قرب ليون ، وكانت أكثر المطبوعات الدينية تفقهاً وتحرراً . وكان فى باريس وحدها ثلاث وسبعون مجلة وعلى رأسها « المركيز دفرانس » و « مجلة العلماء » . ورأس اثنان من أقوى خصوم فولتير وأشدهم لدداً تحرير مجلتين واسعتى النفوذ: فأسس ديفونتين «أخبار الأدب» فى ١٧٢١ ، ونشر فريرون « العام الأدبى » من ١٧٥٤ إلى ١٧٧٤ . ونسجت ألمانيا على هذا المنوال ، فأصدرت « رسائل فى الأدب الجديد » التى كان ليسنج وموسى مندلسون من بين من زودوها بمقالاتهم الكثيرة . وفى إيطاليا تناولت « مجلة الأدباء » المواضيع العلمية والأدبية والفنية ، أما مجلة « كافيه » فكانت صحيفة رأى على طريقة « الاســبكتاتور الانجليزية » وفى السويد جعل أولوف فون دالين من صحيفة « سفنسكا آرجوس » رسولا للتنوير : ولما كانت كل هذه الدوريات تقريباً تستعمل اللغات القومية ولا تخضع لإشراف كنسى ، فقد كانت بمثابة خميرة طالعة فى حركة عصرها المضطربة :

ومن سمات القرن الثامن عشر ، كما أنه من سمات عصرنا الحاضر ، ذلك التشوف المنتشر إلى المعرفة — وهو بالضبط تلك الشهوة الفكرية التى أنكرتها العصور الوسطى باعتبارها خطيئة الغرور الأحمق . وقد استجاب الكتاب بحماسة ليجعلوا المعرفة أوسع منالا وفهماً . فكثرت « الخلاصات » ، وحاولت كتب مثل « الرياضة الميسرة » و « آراء بيل الأساسية » و « عقل مونتينى » و عقل فونتيل » أن تضع العلم ، والأدب ، والفلسفة فى متناول جميع الناس ، وازداد باطراد عدد الأساتذة الذين يحاضرون باللغات الوطنية ، ووصلت بذلك محاضراتهم إلى جماهير لا قبل لها بتعلم اللاتينية . وأخذت المكتبات والمتاحف تتسع وتفتح كنوزها للطلاب . ففى ١٧٥٣ أوصى السير هانز سلون للأمة البريطانية بمجموعته البالغة خمسين ألف كتاب ، وعدة آلاف من المخطوطات ، وعدداً كبيراً من الصور ، والعملات ، والتحف الأثرية . وقرر البرلمان تعويض ورثته بعشرين ألف جنيه ، وأصبحت المجموعة نواة للمتحف البريطنى ، وأضيف إليها مجموعتا مخطوطات هارلى وكوطن ، والمكتبات التى جمعها ملوك انجلتره ؛ وفى ١٧٥٩ فتح المتحف العظيم للجمهور . وكان يقتنى فى ١٩٢٨ نحو ٣,٢٠٠,٠٠٠ مجلد مطبوع و ٥٦,٠٠٠ مخطوط ، تملأ أرففه البالغ طولها خمسة وخمسين ميلا .

وأخيراً ظهرت الموسوعات لتجمع ، وترتب ، وتوصل للقراء ذخائر العلم الجديدة لكل قادر على القراءة والتفكير . وقد عرفت العصور الوسطى موسوعات كتلك التى وضعها ايزيدور أسقف إشبيلية (حوالى ٦٠٠ — ٦٢٦) ، وفانسان البوفى (حوالى ١١٩٠ — ١٢٦٤) ؛ وفى القرن السابع عشر كان هناك موسوعة يوهان هنريش آلستيد (١٦٣٠) و « القاموس التاريخى الكبير » لمورتيرى (١٦٧٤) . وكان « القاموس التاريخى النقدى » لبيل (١٦٩٧) أقرب إلى تجميع لحقائق مقلقة ، ونظريات موحية ، منه إلى الموسوعة ، ولكن تأثيره على فكر أوربا المثقفة فاق تأثير أى مؤلف مماثل آخر قبل مؤلف ديدور . وفى لندن نشر أفرايم تشيمبرز عام ١٧٢٨ ، فى مجلدين « موسوعة أو قاموساً عاماً للآداب والعلوم » ، وقد أسقط منه التاريخ ، والتراجم ، والجغرافيا ، ولكنه بفضل نظام الأحالات أو الإسنادات

الترافقية الذى ابتكره ، وبغير ذلك من الوسائل ، فتح الطريق الذى سلكته « موسوعة » ديدرو ودالامبير الخطيرة (١٧٥١ وما بعدها) . وفى ١٧٧١ ظهرت فى ثلاثة مجلدات الطبعة الأولى من « الموسوعة البريطانية » ، أو قاموس الآداب والعلوم — من وضع بعض السادة فى اسكتلندة ، ومطبوعة فى أدنبرة وبلغت طبعة ثانية منها (١٧٧٨) عشرة مجلدات ، وتقدمت على سابقتها باحتوائها التاريخ والتراجم . وهكذا اطرد نموها من طبعة لأخرى خلال مائتى عام . وما أكثر الذين تزودوا منا من هذا المحصول ، وسطوا على تلك الذخيرة ، غير مرة كل يوم » .

وما وافى عام ١٧٨٩ حتى كانت الطبقات الوسطى فى أوربا الغربية لا تقل ثقافة عن طبقتى الأشراف والاكليروس . لقد شقت الطباعة طريقها ، تلك كانت الثورة الأساسية رغم كل ما يقال .

٢ — إلهام الدراسات الكلاسيكية :

كانت الدراسات الكلاسيكية تهبط فى رفق من مكان القمة الذى تربعت عليه أيام جوليوس وجوزف سكاليجر ، وكازوبون ، وسالماسيوس ، وبنتلى ؛ ولكن نيكولا فريرى واصل مانهجوا عليه من تفان جدير بالعلماء ، وما حققوه من نتائج بعيدة المدى . فقد قبل عضواً فى الأكاديمية) الفرنسية الملكية للمأثورات والآداب البحتة وهو فى السادسة والعشرين ، وقرأ لها فى ذلك العام (١٧١٤) بحثاً « فى أصل الفرنجة » قلب الأسطورة الفخور التى زعمت أن الفرنجة رجال « أحرار » قدموا من اليونان أو طروادة ، فقال إن الأصح أنهم كانوا همجاً من الألمان الجنوبيين . وأبلغ عنه الأبية فرتو الحكومة لأنه قذف فى الملكية . فزج بالعالم الشاب فى الباستيل فترة قصيرة ، وبعدها قصر أبحاثه على بلاد غير فرنسا . ورسم ١,٣٧٥ خريطة توضح الجغرافيا القديمة . وجمع البيانات المثيرة عن تاريخ العلوم والآداب الكلاسيكية ، وعن أصول الأساطير اليونانية . وقد صححت مجلداته الثمانية عن التأريخ القديم (الكرونولوجيا) كتاب جوزف يوسطس سكاليجر الخطير ، وأرسى التاريخ الصينى على أسس مقبولة فى يومنا هذا ، فكان هذا

واحداً من مئات الوخزات العلمية التي أحدثت تقوياً في مفهوم الكتاب المقدس للتاريخ :

ووجهت ضربة مماثلة للخرافات الكلاسيكية حين قرأ بوبى على الأكاديمية (١٧٢٢) بحثاً يتشكك في رواية ليفي للتاريخ الروماني القديم . وكان لورنتسو فاللا قد ألمع إلى هذه الشكوك عن هذه النقطة حوالى عام ١٤٤٠ ، وقد طورها فيكو عام ١٧٢١ ، ولكن بحث بوبى المستفيض سخف بشكل قاطع قصص رومولوس وريموس ، والهوراشيين ، والكورياتيين ، باعتبارها مجرد أساطير ؛ ومهد الطريق لعمل بارتولد نيبور في القرن التاسع عشر . ولا تدخل الكتب التالية تماما في النطاق الزمني لهذا الفصل ، مع انتمائها إلى القرن الثامن عشر ، وهي كتاب « ملاحظات تمهيدية عن هومر » (١٧٩٥) الذى فكك فيه فريدرش فولف الشاعر هومر إلى مدرسة وأسرة كاملة من المنشدين ؛ وطبعات رتشرد بورسن المدققة لأسخيلوس ويوربيديس ، وكتاب يوزف ايكيل « نظرية المسكوكات » (١٧٩٢ ـ ٩٨) الذى أسس علم المسكوكات والمعادن .

ولم يشعر عالم الدراسات الكلاسيكية ثانية بنشوة إلهام كذلك الإلهام الذى جاءه من إنسانيي النهضة ، إلا حين اكتشفت مدينة هركولانيوم . ففي ١٧٣٨ كان عمال يضعون أساس بيت للصيد يبنى لشارل الرابع ملك نابلي ، فكشفوا بطريق الصدفة عن أطلال هركولانيوم ، وفي ١٧٤٨ أظهر فحص مبدئي بعض الأبنية المذهلة لمدينة يومبي التي طمرها هي أيضاً ثوران فيزوف في ٧٩ م . وفي ١٧٥٢ استنقذت المعابد الفخمة التي بناها المستعمرون اليونان في بيستوم من غياهب القرون المظلمة . وقد رسم الحفار الكبير بيرانيزى معابد بومبي وقصورها وتماثيلها التي أخرجتها الحفائر على محفورات وجدت النسخ المنقولة عنها إقبالا من المشترين في كل أنحاء أوربا . وأسفرت هذه الكشوف عن إحياء حار لاهتمام القوم بالفن القديم ، ودافع قوى للحركة الكلاسيكية الجديدة التي تزعمها فنكلمان ، وإضافة هائلة للمعرفة الجديدة بأساليب الحياة القديمة .

ويجب أن نقف هنا هنيهة للإقرار بدين العلم للرهبان الذين استخدموا

مكتباتهم ومجموعات مخطوطاتهم للقيام بأبحاث وتصنيف سجلات كانت معينة جداً للفكر الحديث . من ذلك أن رهبان القديس مور البندكتيين واصلوا عكوفهم القديم على الدراسات التاريخية . وأنشأ دوم برنار دمونفوكون علم الباليوغرافيا (الكتابات القديمة) بكتابه « الباليوغرافيا اليونانية » (١٧٠٨) ، ووضح التاريخ القديم بالفن القديم فى كتابه « العلم القديم مشروحاً وممثلا بالصور » (عشرة مجلدات ، ١٧١٩ — ٢٤) ووجه دراساته المدققة لوطنه فى خمسة مجلدات من القطع الكبير « آثار المملكة الفرنسية » (١٧٢٩ — ٣٣) . وبدأ دوم أنطوان ريفيه دلاجرانج فى ١٧٣٣ التاريخ البندكتى المسمى « التاريخ الأدبى لفرنسا » الذى أصبح السلف والمعين الذى استمدت منه جميع التواريخ اللاحقة للأدب الفرنسى القديم . وكان أعظم علماء القرن الثامن عشر البندكتيين هؤلاء هو دوم أوجستن كالميه ، الذى التجأ فولتير إلى ديره فى سينون عام ١٧٥٤ ، ولم ين فولتير عن الإفادة من كتاب كالميه « شروح نصية على جميع أسفار العهدين القديم والجديد » (١٧٠٧ — ١٦) ، بل سطا عليه أحياناً . ورغم ما فى هذه المجلدات الأربعة والعشرين من مآخذ[١٨] فقد امتدحها القراء باعتبارها أثراً شامخاً للتفقه فى العلم . وقد ألف كالميه عدة كتب أخرى فى تفسير الكتاب المقدس ، وحذا حذو بوسويه فى تصنيف « تاريخ للعالم » (١٧٣٥) ، وأنفق كل ساعات يقظته تقريباً فى الدرس والصلاة . ومرة سأل فولتير فى جهل سعيد « من تكون مدام دبومبادور هذه ؟ » [١٩] ورفض منصب الأسقفية ، وكتب قبريته التى قال فيها باللاتينية « هنا يرقد إنسان قرأ كثيراً ، وكتب كثيراً ، وصلى كثيراً ، فلعله أحسن عملا ! آمين » [٢٠] .

وشارك بعض العلمانيين الأجرياء فى نقد الكتاب المقدس مثال ذلك الطبيب جان آستروك ، الذى درس مصادر الأسفار الخمسة ، التى افترض أن موسى كاتبها ، فى كتابه « استقراءات حول السجلات الأصلية التى يبدو أن موسى اقتنع بها فى كتابة سفر التكوين » (١٧٥٣) ؛ هنا ذكر لأول مرة أن استعمال اسمين مختلفين لله ، وهما يهوه وأيلوهيم ، يشير إلى قصتين أصليتين للخليقة ، ربط بينهما فى سفر التكوين ربطاً واهياً متكرراً . وحاول آخرون من دارسى الكتاب المقدس أن يحسبوا تاريخ الخليقة من واقع

الأسفار الموسوية الخمسة ، فخلصوا إلى مائتى نتيجة مختلفة . وأزعج المستشرقون المؤمنين المحافظين بذكرهم التأريخ المصرى (الكرونولوجيا) الذى زعم أنه يرجع إلى ثلاثة عشر ألف سنة ، والحسابات الصينية التى قدرت عمر الحضارة الصينية بتسعين ألف سنة . ولم يصدق أحد البراهمة الهنود الذين يعتقدون أن العالم عمر ٣٢٦,٦٦٩ عصرا ، يحتوى كل منها على قرون كثيرة .(٢١)

أما أجرأ وأخطر إسهام فى دراسات الكتاب المقدس Biblical Studies فى القرن الثامن عشر فصاحبه أستاذ ألمانى للغات الشرقية فى أكاديمية هبورج ، هو هرمان رايماروس . وقد ترك عند موته فى ١٧٦٨ مخطوطاً من أربعة آلاف صفحة عكف عليه عشرين عاماً ، وعنوانه « دفاع عن عباد الله العقلانيين » . ولم يجرؤ أحد على نشره إلى أن نشر وعنوانه « دفاع عن عباد الله العقلانيين » . ولم يجرؤ أحد على نشره إلى أن نشر ليسنج(١٧٧٤ — ٧٨) سبع قطع منه وصفها بأنها «كسر من كتاب مجهول المؤلف وجد فى فولفتبوتل» (حيث كان ليسنج أميناً للمكتبة) . وهبت كل ألمانيا المثقفة تقريباً محتجة إلا فردريك الأكبر . لا بل أن يوهان زملر ، العالم المتحرر ، رمى ليسنج بالجنون لأنه احتضن مثل هذا النقد المدمر للمعتقدات السنية . ذلك أن رايماروس لم يكتف فى الكسرة السابعة التى تناولت « هدف المسيح وتلاميذه » برفض معجزات المسيح وقيامته ، بل صوره يهودياً شاباً ، جاداً ، لطيفاً ، مخدوعاً ، ظل وفياً لليهودية إلى النهاية ، وقبل معتقد بعض اليهود بأن العالم مشرف على الزوال ، وأرسى مبادئه الأخلاقية على هذه المقدمة إعداداً للحدث . وذهب رايماروس إلى أن المسيح فسر عبارة « ملكوت السموات » بالمعنى المتعارف عليه بين قومه ، وهو ملك آت لليهود المحررين من روما .(٢٢)

وزعم أن صرخته اليائسة على الصليب « إلهى إلهى لماذا تركتنى » كانت اعترافاً بناسوته وبهزيمته . وبعد أن غاب أحال بعض الرسل هذا الملكوت الموعود حياة بعد الموت ، وبهذا المعنى لم يكن مفتتح المسيحية هو المسيح بل الرسل . ويقول ألبرت شفايتسر ، المفسر العلامة لكتاب رايماروس ، « ربما كان كتابه أروع إنجاز فى كل مسار البحث التاريخى فى حياة المسيح ، لأنه أول

من أدرك أن حياة الفكر التى تحرك فيها المسيح كانت فى صميمها أخروية (eschatological) « — أى مبنية على نظرية نهاية وشيكة للعالم . » (٢٣)

ومن دراسة الآثار اليهودية انتقل العلماء فى حذر إلى شعوب الشرق التى رفضت المسيح أو لم تسمع باسمه قط . فترجمة جالان الفرنسية لألف ليلة (١٧٠٤ — ١٧) وكتاب ريلان « ديانة المسلمين » (١٧٢١) ، وكتاب بورينيه « تاريخ الفلسفة الوثنية » (١٧٢٤) ، وكتاب بولانفلييه « حياة محمد » (١٧٣٠) ، وترجمة سيل الإنجليزية للقرآن — هذه كلها أظهرت الإسلام ، لا عالماً من الهمجية ، بل ساحة لعقيدة منافسة قوية ، ولنظام خلقى بدا موفقاً رغم تسامحه مع فطرة تعدد الزوجات فى جنس الرجال . وفتح إبراهام هياسنت آنكتيل — دوبرون ميداناً آخر بترجمته أسفار البرت المقدسة . وقد جذبته إليها قراءته مختارات من الزند أفستا فى مكتبة بباريس ، فعدل عن تحضيره للقسوسية ، واعتزم أن يرتاد كتب الشرق المقدسة فى أصولها . ولما كان أفقر من أن يدفع نفقات الرحلة ، فقد انخرط وهو فى الثالثة والعشرين (١٧٥٤) فى سلك الحملة الفرنسية إلى الهند . وما أن وصل إلى بوندتشيرى حتى تعلم قراءة الفارسية الحديثة ، وفى شاندرناجور درس السنسكريتية ، وفى صورات أقنع كاهناً برتيا بأن يعلمه البهلوية والزندية . وفى ١٧٦٢ عاد إلى باريس ومعه ١٨٠ مخطوطاً شرقياً عكف على ترجمتها ؛ وكان خلال ذلك يعيش على الخبز والجبن والماء ، ويتجنب الزواج لأنه ترف لا طاقة له به . وفى ١٧٧١ نشر ترجمته الفرنسية للزند — أفستا ، وشذرات من كتب أخرى للبرت ، وفى ١٨٠٤ أصدر « الأوبانيشادات » . وقد شارك الوعى بالديانات والنواميس الأخلاقية غير المسيحية ، ببطء ، فى تقويض دجماطيقية العقائد الأوربية .

وكان أبعد هذه الإلهامات العرقية أثراً إماطة المرسلين والرحالة والعلماء الأوربيين اللثام عن تاريخ الصين وفلسفتها . وكانت البداية هى عودة ماركو بولو إلى البندقية فى ١٢٩٥ ؛ وعززتها الترجمات الفرنسية والإنجليزية (١٥٨٨) لكتاب الأب اليسوعى خوان جونداليس دى مندوزا « تاريخ الصين » (لشبونه ١٥٨٤) ، وترجمة هاكلويت الإنجليزية ، فى كتابه

« رحلات » (١٥٨٩ - ١٦٠٠) ، لمقال لاتينى « عن مملكة الصين » (مكاو ، ١٥٩٠) . وظهر الأثر الجديد فى مقال مونتينى » فى التجربة (١٥٩١) حيث يقول « الصين ، التى تفضل حكومتها وآدابها وفنونها نظائرها عندنا فى كثير من مواطن التفوق ، دون أى علم منها بنظمنا . » (٢٤) وفى ١٦١٥ نشر الأب اليسوعى نيكولاس تريجوت وصفه للبعثة المسيحية إلى الصين ، وسرعان ما ترجم إلى الفرنسية ، وإلى الإنجليزية فى « حجاج برتشاش » (١٦٢٥) . وقد امتدح توبجوت وغيره النظام الصينى الذى قضى باشتراط التعليم المتخصص المفصل لتولى المناصب العامة ، وبالسماح لجميع الطبقات من السكان الذكور بالامتحان للوظائف ، وباخضاع كل الهيئات الحكومية للتفتيش الدورى . ونشر يسوعى آخر هو أثناسيوس كيرشر ، العلامة المدهش المتعدد المعارف ، فى عام ١٦٧٠ ، موسوعة بمعنى الكلمة اسمها « الصين المصورة » امتدح فيها الحكومة الصينية لأن على رأسها ملوكاً - فلاسفة . (٢٥) .

وأثنى اليسوعيون ثناء مستطاباً على ديانة الصين وفلسفتها . فقال تريجوت إن الصينيين المتعلمين يتصورون الله روح العالم ، والعالم جسده ؛ وكان فى وسع سبينوزا ، الذى قال بمثل هذا الرأى ، أن يقرأ هذه الفكرة فى كتاب نشر بأمستردام فى ١٦٤٩ ، يقتنيه فى مكتبته فرانز فان دن إندن ، الأستاذ الذى علمه اللاتينية ؛ (٢٦) وفى ١٦٢٢ نشر اليسوعيون ترجمة لاتينية لكونفوشيوس « حكمة الصين » وفى خلاصة أخرى سموها « الفيلسوف الصينى كونفوشيوس » (١٦٨٧) وصفوا النظام الأخلاقى الكونفوشى بأنه « أرقى فضيلة علمت للناس ، فضيلة يجوز القول بأنها منبثقة من مدرسة المسيح » . (٢٧) وقد كتب الأب اليسوعى لوى لكونت فى « مذكراته عن الصين » (١٦٩٦) أن الشعب الصينى « حفظ معرفة الإله الحق مدى ألفى عام » وأنه « مارس أنقى ناموس للفضيلة فى الوقت الذى كانت فيه أوربا لا تزال مترديه فى حمأة الخطيئة والفساد » (٢٨) وقد شجبت السوربون هذا الكتاب . وفى ١٦٩٧ نشر ليبنتز الحذر سياسياً ، المتيقظ لكل هبة نسيم فى جو الفكر ، كتابه « آخر الأنباء من الصين » . وقد قدم فيه أوربا على الصين فى العلوم والفلسفة ، ولكن :

« من كان يعتقد أن هناك شعباً يبزنا فيما يتبعه من مبادىء الحياة المدنية ؟ فهذا الذى نراه فى حالة الصينيين . . . فى الأخلاق والسياسة . فمحال أن نصف الجمال الذى وجهت به كل الأشياء فى قوانين الصينيين لتحقيق الطمأنينة والسلام للشعب أكثر من توجيهها فى قوانين الشعوب الأخرى . . . ويخيل إلى أن الوضع فى شئوننا قد بلغ من السوء – بسبب انتشار الفساد بيننا بغير حدود – مبلغاً يكاد يكون فيه من الضرورى أن يبعث إلينا مرسلون صينيون ليعلمونا فائدة الدين الطبيعى وممارسته ، تماماً كما نبعث إليهم بالمرسلين ليعلموهم الدين السماوى . لذلك أعتقد أنه لو اختير حكيم ليصدر حكمه ... فى تفوق الشعوب ، لأعطى قصب السبق للشعب الصينى – اللهم إلا فى تمايزنا عليه بشىء سام واحد ولكنه فوق الطبيعة البشرية ، وأعنى به العطية الإلهية التى وهبناها ، وهى الدين المسيحى . » (٢٩)

وحث ليبنتز أكديمات أوربا على جمع المعلومات عن الصين ، وساعد فى إقناع الحكومة الفرنسية بإرسال العلماء اليسوعيين الأكفاء للانضمام إلى البعثة فى الصين وتقديم التقارير الواقعية . وفى ١٧٣٢ لخص جان باتيست دوهالد هذه التقارير وغيرها من المعلومات فى كتابه « وصف ... امبراطورية الصين » ، وبعد عام ترجم الكتاب إلى الإنجليزية ، فكان له فى فرنسا وانجلتره تأثير بعيد المدى . وكان دوهالد أول من أذاع شهرة الفيلسوف الصينى مينسيوس فى أوربا . وما انتصف القرن الثامن عشر حتى كان كتاب بوسويه فى « تاريخ العالم » قد غض من قدرة ذلك الكشف عن حضارات قديمة ، واسعة ، مستنيرة ، كاد تاريخه « العالمى » يغفلها تماماً ، وأصبح الطريق ممهداً لمنظور فولتير الأوسع عن قصة الحضارة .

وظهرت نتائج هذه المبالغات الحماسية فى التقاليد والفنون والعادات والآداب والفلسفة الأوربية . ففى ١٧٣٩ نشر المركيز دارجنس سلسلة من « الرسائل الصينية » بقلم صينى وهمى ، انتقد فيها النظم والعادات الأوربية ، وفى ١٧٥٧ أضحك هوراس ولبول انجلتره بكتابه « رسالة من الفيلسوف الصينى كسوهو » ، وفى ١٧٦٠ لجأ جولدسمث إلى نفس الحيلة فى كتابه « مواطن العالم » . وحين كان الامبراطور جوزيف الثانى يحرث بنفسه قطعة

obeikandl.com

أرض كان يقلد عادة اتبعها الأباطرة الصينيون . (٣٠) وحين كانت سيدات باريس الراقيات يفتحن شماسيهن اتقاء الشمس ، كن يعرضن بدعة جميلة أدخلها اليسوعيون إلى فرنسا من الصين ، (٣١) وفى أخريات القرن الثامن عشر تطورت الشمسية pavasol إلى مطرية umbrella . وكان الخزف الصيني واللاكيه اليابانى قد أصبحا فى القرن السابع عشر مقتنيات غالية فى البيوت الأوربية ، واستهوى خيال الإنجليز حوالى عام ١٧٠٠ ورق الجدران الصينى الذى تؤلف وحداته الصغيرة الموضوعة فى مكانها الصحيح رسماً كبيراً واحداً . ودخل الأثاث الصينى البيوت الإنجليزية حوالى عام ١٧٥٠ . وطوال القرن الثامن عشر كان الولع بالصينيات Chinoisees وهى الأدوات الصينية الصنع أو الطراز — يميز الزخرفة الإنجليزية والفرنسية . وسرى إلى إيطاليا وألمانيا ، واختلط بحلية الروكوك ، واستبدت بدعته بالناس استبداداً حمل الكثير من النقاد على أن يهبوا لتحدى طغيانه . وأصبح الحرير الصينى رمزاً لعلو المكانة الاجتماعية ، وانتشرت الحدائق الصينية فى غرب أوربا ، وأحرقت الألعاب النارية الصينية أباهم الأوربيين . (٣٢) وكانت « توراندوت » التى ألفها جوزى « فنتازيا » صينية . وظهر نيف وعشر مسرحيات بخلفية صينية على المسرح الإنجليزى ، وطور فولتير مسرحيته « يتيم صينى » من دراما صينية فى المجلد الثالث من كتاب دوهالد . (٣٣)

وكان التأثير الصينى فى الفكر الغربى على أشده فى فرنسا ، حيث تلقفه أحرار الفكر سلاحاً آخر يشهرونه على المسيحية . وأبهجهم أن يجدوا أن كونفوشوس كان رجلا حر التفكير لا يسوعياً مرحل عن وطنه . وصرحوا بأن نظام كونفوشيوس الخلقى أثبت أن الناموس الخلقى الذى لا يعتمد على دين سماوى شيء ممكن عملياً . (٣٤) ولاحظ بيل (١٦٨٥) أن امبراطوراً صينياً كان يمنح المرسلين الكاثوليك حرية العمل فى الوقت الذى يفرض فيه لويس الرابع عشر ، بعد إلغائه مرسوم نانت المتسامح الذى أصدره هنرى الرابع ، الامتثال لمذهب الدولة ، مستعيناً على ذلك بالعنف الهمجى الذى استعملته خيالته فى احتلالها بيوت الهيجونوت . وقد أخطأ بيل فى تفسير عقيدة الكونفوشوسيين فحسبهم ملحدين ، ومن ثم استشهد بهم لدحض الحجة المستمدة من الإجماع العالمى على وجود الله . (٣٥) أما مونتسكيو

فلم يستسلم للمد الشرقى ، ووصف الأباطرة الصينيين بأنهم حكام مستبدون ، وندد بالتجار الصينيين غير الأمناء ، وفضح فقر الجماهير الصينية ، وتنبأ بما سيسفر عنه تكاثر السكان فى الصين من عواقب وخيمة .[٣٦] وحاول كزينيه الرد على مونتسكيو فى كتابه « حكم الصين الاستبدادى» (١٧٦٧) ، فأثنى على هذا الحكم لأنه « استبداد مستنير » واستشهد بنماذج صينية على اصلاحات لازمة فى الاقتصاد والحكم الفرنسيين . أما طرجو ، المرتاب فى مثالية الصين ، فقد كلف كاهنين كاثوليكيين صينيين فى فرنسا بأن يذهبا إلى الصين ويحاول الحصول على إجابات حقيقية عن اثنين وخمسين سؤالا ، وقد شجع تقريرهما على تقييم أكثر واقعية لما فى الحياة الصينية من خير وشر.[٣٧]

وقد قرأ فولتير عن الصين فى إفاضة وشغف . وخص الحضارة الصينية بالفصول الثلاثة الأولى فى « المقالة عن العرف » ، ووصف الصين فى قاموسه الفلسفى بأنها « أروع ممالك الأرض ، وأقدمها ، وأوسعها ، وأحفلها بالسكان ، وأحسنها تنظيما . »[٣٨]

وقد أسهم إعجابه بالحكومة الصينية فى ميله إلى الاعتقاد بأن خير أمل فى الإصلاح الاجتماعى معقود على « الاستبداد المستنير » ، الذى عنى به الملكية المستنيرة . وكان كالعديد من الفرنسيين ، وكالفيلسوف الألمانى فولف ، على استعداد لسلك كونفوشيوس فى زمرة القديسين ، لأنه «علم الشعب الصينى مبادىء الفضيلة قبل تأسيس المسيحية بخمسمائة سنة » .[٣٩] وذهب فولتير ، وهو الذى عرف عنه أدب السلوك ، إلى أن ما تحلى به الصينيون من ذوق وضبط للنفس ، ومسالمة هادئة ، مثال ينبغى أن يقتدى به مواطنوه السريعو الانفعال ،[٤٠] وربما أن يقتدى به هو نفسه . فلما ترجمت إلى الفرنسية قصيدتان من نظم تشين لونج (حكم ١٧٣٦ — ٩٦) امبراطور الصين فى تلك الفترة ، استجاب فولتير لهما شعراً . فأهداه الامبراطور زهرية من الخزف الصينى .

وكان علم الأوربيين بالأديان والأنظمة الأجنبية عاملا قوياً فى إضعاف اللاهوت المسيحى . وأفضت الأنباء الواردة من فارس ، والهند ، ومصر ، والصين ، وأمريكا ، إلى سلسلة لا آخر لها من الأسئلة المربكة . فتساءل

مونتسكيو مثلا كيف يتأتى للمرأ أن يختار الدين الحق من بين ألفي دين مختلفة ؟ (٤١) وتساءل عشرات غيره كيف أمكن خلق العالم سنة ٤٠٠٤ ق.م ، في حين أن الصين كان لها حضارة راقية سنة ٤٠٠٠ ق. م ؟ ولم لم تحتفظ الصين بسجل أو تقليد متوارث لطوفان نوح الذي تقول التوراة – إنه أغرق الأرض كلها ؟ ولم خص الله بوحيه الكتابي أمة صغيرة في غرب آسيا إن كان قد قصد به البشرية كلها ؟ وكيف يستطيع إنسان أن يصدق بأنه لا خلاص بعيداً عن الكنيسة ؟ – فهل كل تلك الملايين التي عاشت في الهند ، والصين ، واليابان ، تصلى الآن نار جهنم ؟ وكافح اللاهوتييون للإجابة عن هذه الأسئلة وأشباهها بتلال من التمييزات والتعليلات ، ولكن هيكل العقيدة ظهرت فيه رغم ذلك شروخ جديدة يوماً بعد يوم ، في الغالب نتيجة لتقارير البعثات الدينية ، ولاح أحياناً أن اليسوعيين في الصين قد اعتنقوا الكونفوشيوسية بدلا من أن يهدوا الصينيين إلى المسيح .

وألم يكن العلم الذي جاء به هؤلاء اليسوعيون المثقفون ، لا اللاهوت الذي علموه ، هو صاحب الفضل في كسبهم الكثير جداً من الأصدقاء من بين الصينيين ؟

* * *

openkandi.com